نحن والموسيقى

كنا — أنا وصديق لى — نتمشى فى الصفاة ، نخادع النفس بالترويح عنها ونوهمها بإدخال السرور والبهجة عليها وكان الجو حاراً خانقاً بالرغم من أن الوقت أصيل ، وأنه لم يبق إلا ساعة أو بعض ساعة حتى تودع الشمس هذا العالم الفانى . . وكانت أصوات النعاج والحمير والجمال (عفواً) تمتزج فتكون أصواتاً غريبة تزعج السمع وتحدث فى النفس تأثيراً غامضاً مبهماً لاأستطيع أن أحدد مداه أو أسبر غوره بالضبط . . وكانت سيارات الشركة الضخمة تروح وتجىء فتثير من حولها سحباً كثيفة من الغبار تملأ الأنوف وتحول بينها وبين استنشاق النسيم العليل الرئتين. عفواً مرة أخرى فما كنت أقصد بذلك وصف الطبيعة فى تلك الساعة. هذه الطبيعة التى بخلت علينا بجمالها وساعدناها نحن على ذلك وأتحنا لها الفرص . . ولم أقصد أيضاً أن أصف شعورى أو أعبر عما يجول فى خاطرى فلا أظن أننى سأوفق فى ذلك لو حاولت أن أصدق فيه ، وإنما هذه مقدمة لم أجد منها بداً ولعل السبب لا يخفى . وكنا أنا وصديقى وقد وصلنا قصر (نايف) وقد أخذت تلك الضوضاء التى تحول بيننا وبين حرية الحديث وسلامة التفكير تخفت وتتضاءل رويداً رويداً وكان الحديث قد جرنا إلى موضوع (الموسيقى) فلاحظت من صاحبى حماساً ونشاطاً غير معهودين فيه إلى الخوض فى هذا الحديث أدركت منها أنه محب لهذا الفن الجميل . .

قال : لكم أجد فى نفسى ميلا للموسيقى وشغفاً بها . أننى أشعر بأن كل من يجيد العزف على آلة موسيقية يحس بنشوة وراحة لا يشعر بها إلا من من الله عليه بهذه النعمة الجليلة..

قلت : هذا صحيح . . فما الذى يمنعك إذن ياصديق أن تتعلمها مادمت تجد فى نفسك إليها كل هذا الميل ؟

قال : هناك عوائق . .

قلت : عوائق ! ! وما عسى أن تكون تلك العوائق ؟

قال : التقاليد . .

قلت : وما دخل التقاليد ياصديق فى الأمر كل ماهناك أن تشترى آلة موسيقية تفضل العزف عليها وتتلقى دروسك على يد فنان موسيقى . .

قال: هذا أمر أسهل ولكن المشكلة فى هذه الآلة أين أضعها؟

قلت : فى بيتكم طبعاً . هل هناك مكان آخر . .

قال : فى بيتنا ؟ إن هذا مستحيل فأن أبى لا يسمح لى بذلك . . ثم هناك الجيران . . أنهم لاشك سيستنكرون منى ذلك ويعيرونى به .

قلت : أما أبوك فلا أعرف وجه الصواب فى معارضته لك..وأما الجيران فإننى أعتقد بعكس ماترى . أننى متأكد بأنهم سيطربون كلما صافحت مسامعهم أنغام الموسيقى الشجية . . ومن منا يجهل سحر الموسيقى على الألباب ؟ . .

قال : إنك لم تفهم ماأقصد ياأخى . . إنهم قد يرتاحون لها حينما ينصتون وقد يحسون بلذة ، كل ذلك فى سرهم ولا يستطيعون أن يبوحوا بأعجابهم أو يبدوا ارتياحهم لأنها عيب . .

قلت : ماذا تقول ؟ عيب ؟ الموسيقى عيب ! ! إنك ياصديقى تغمط حق الموسيقيين وتظلم أولئك العباقرة الذين قدموا للعالم ثروة روحية من الألحان السماوية لازالت تتردد على الأسماع فتسموا بالنفوس وتنقلها إلى عالم آخر كله سحر وكله جلال وكله جمال . . إننى أخجل ياصديقى فى أن أعترف أمامك بجهلك وعدم تقديرك للموسيقى . إن الغربيين ولست فى حاجة أن أقول لك أنهم أرقى منا حضارة وأكثر تقدما يعتبرون الموسيقى أمراً ضرورياً لا يستغنون عنه إلا إذا استغنوا عن حاجتهم من الطعام والشراب . . وإن كل بيت حتى بيوت الفقراء منهم — لا يخلو من تلك الآلة الشهيرة (البيانو) وأنهم يثقفون أرواح أطفالهم بالموسيقى قبل أن يملأوا عقولهم بالعلوم لأن الموسيقى تصقل عقولهم وترهف أحاسيسهم وتهذب نفوسهم وترقى أذواقهم . . ثم إنى لا أدرى ما بالنا نحن معشر الشرقيين نعجب بالغربيين وتبهرنا حضارتهم ولكننا لا نحسن استغلال هذا الإعجاب ولا نجنى منه الفائدة المرجوة . . فلا نحاول أبداً فى أن نغترف من علومهم أو آدابهم أو موسيقاهم على الوجه الأكمل . بل أنه لم يدر بخلدنا قط أن نكتسب من أخلاقهم والاعتزاز بالقومية والسمو بالنفس عما يشينها أو يظهرها — أمامهم — بمظهر العبد الذليل . لقد شططت ياصديقى عن الموضوع فلا تؤاخذنى . ولكنى مع الأسف — لا أستطيع أن أخفى عليك عجبى بل رثائى حينما أراك تسخر من الموسيقى وتدعى بأنها عيب .

(البقية على الصفحة السابقة — بذيل العمود الأول)